الشرق والحضارة الغربية

في حفلة جمعية تهذيب الشبيبة ببيروت

سادتي : موضوع حديثنا هو موقف الشرق حيال المدنية الغربية الحاضرة ولقد كان هذا الموضوع في صورة من صوره حديث غيرنا بالامس وقد يكون هذا الموضوع حديثاً لنا وحديثاً لغيرنا في الغد وليس في تكراره من اشخاص مختلفين وفي اوقات مختلفة وعلى صور مختلفة ما من شأنه ان يسقط قيمته لان تكرار معالجته تمنيا وتفيدنا لاتصال حياة كل فرد منا بما يترتب على موقف كل من الشرق والغرب حيال بعضهما البعض ، ولان الموضوع ممتد الاطراف متشعب المسائل ، ولان من كل محاولة يقصد بها الى استجلاء غوامضه والوصول الى لبه قد يظفر الذهن بالآراء المنوعة واذا لم يظفر الذهن فقد يظفر القلب بآثار التذكر والاهتمام بشؤوننا العمرانية

سادتي : في كل يوم نسمع اقوالاً عن الشرق والغرب وعما ينعت بالقديم وبالجديد . وفي كل يوم يدور الكلام حول من يسمون بالمحافظين او المجددين . وفي كل يوم يتوثب انصار الحضارة الغربية الى الحض عليها او يجهر خصومها بانتقاص قيمتها

ومهما يكن من تعدد الالفاظ التي تخلع على المقاصد من عبارات الشرق والغرب والقديم والجديد والتأخر والتقدم فنحن الذين نعيش في العصر الحاضر قد اتيح لنا ان نشهد في الوقت نفسه نوعاً من النظم الاجتماعية والمناهج الفكرية والبواعث الخلقية واسلوباً من تقديرات الامور وتصور قيمتها يخضع لآثار مختلف البقاع ويتسلط على النفوس ، وان مجموعة هذه الآثار المتسلطة على البدان والقلوب تسمى مواضعة بالحضارة

ولسائل ان يسأل : كيف تنشأ هذه الحضارة التي يدين لها الناس ؟ والى اي مدى يتيسر لها ان تتسلط على النفوس ؟ واي مسلك يتخذ لاصطناعها ولكسبها اذا كان الخير في اصطناعها وكسبها ؟ واي مسلك يتخذ لمقاومتها اذا كان الخير في المقاومة ؟ وهل ينتظر العالم في المستقبل حضارة غير هذه الحضارة ؟ وعلى اي صورة يرجح العقل ان تكون حضارة المستقبل ؟

تلك اسئلة تنشأ في نفوسنا من تجاربنا ومعاملاتنا في الحياة ويتولد من مجموعها موضوع اليوم : موقف الشرق حيال الغرب

يخيل اليَّ ان فهم عبارة الحضارة بتحديد مدلولها وان تصور الحضارات في نشوئها ما يساعد على توضيح ما قد يبهم حين نفكر في الموضوع الذي نشرع في معالجته

الحضارة في اظهر صورها تبدو فيما نسميه عادة بالتقدم ومظهر التقدم القبول والانخاذ والهضم والتمثيل لكل ما تقرُّ الطبيعة البشرية النزاعة للكمال انهُ ينسجم مع حاجاتها من تعدي المفضول الى الافضل . وبالتقدم الحقيقي تسكن النفس الى الاصلح وتطمئن اليه بكل ما فيها من قوى العقل والعاطفة والارادة

واذا ضربنا الامثال المؤيدة لصدق ما ذكرنا وجدنا ان الحضارة اليونانية لم تكن الاَّ اسلوباً من اساليب التقدم نشأ في الزمن القار من احتكاك الاغريق بغيرهم من الشعوب . فقد اتصلوا بمدائن آسيا واتصل روادهم وفلاسفتهم بمصر وتم لهم من هذه الاتصالات انخاذ امور واستخلاص قواعد للسير ومحاكاة نظم رأوا انها انسب لحياتهم وكان من قبولهم وهضمهم لما يناسب حاجتهم سواء اكان من ابتكارهم وابتكار غيرهم ما تكونت منهُ حضارتهم

ولم تكن حضارة الروم كذلك الاَّ اسلوباً من اساليب التقدم تهيأ للروم عند احتكاكهم بالاغريق وبغيرهم من الشعوب ثم قبلوا وهضموا ما رأوا الخير في قبوله وهضمه

ولم تكن الحضارة العربية كذلك الاَّ اسلوباً من اساليب التقدم تهيأ للعرب من اتصالهم بشعوب مختلفة وخص لهم من هذا الاتصال اسلوب واضح مميز من الحضارة

ولم تكن حضارة الغرب الراهنة الاَّ اسلوباً كذلك من التقدم تهيأ من الحضارات التي سلفت . واستلهم الغرب في كثير من نواحي تقدمه مجهودات شعوب شتى ومخلفات ازمنة متعاقبة. وقصارى القول ان الحضارة الحالية هي نتيجة تجارب الانسانية جمعاء ولكل في اقامة صرحها عملٌ وانها لم تصل الى حالتها على ما هي الآن عليه في الغرب الاَّ بعد ان وقفت الانسانية بالذات او بالواسطة ضربتها في تشييد الصرح

ويترتب على ما تقدم ان الامم التي تحتذي منوال غيرها في التقدم والوصول اليه عن سبيل المحاكاة والاصطناع ليس ينبغي ان تصغر من قدر نفسها باعتبار انها انتقرت الى غيرها . وليس على الامم التي تمثل الحضارة والتقدم ان تشمخر وتتجبر باعتبار انها بذلت الى غيرها . فليصب الشرق اذن ما يلائمهُ من حضارة الغرب الصالحة وليقدم عليها اقدام من لا يخشى داراً لهُ فيها ملك ونسب . له فيها حقه من عمله التاريخي . ولهُ فيها نسبة الى الانسانية التي لا تعرف الاَّ ان افرادها سواء في حقوق الانسان ، نظراء في النزوع الى ما يناسب من الافضل ، اشباه في التشوق الى الاكمل حين يمهد السبيل . لكن ما مدى هذه المحاكاة ؟؟

ايها السادة : لكل شخصية بشرية نزعتان . اما احداهما فتظهر مواضع المشاركة بين شخصيات الناس جميعاً من اي بلد كانوا وفي اي زمان عاشوا ومن اي جنس او سلالة ينزلون

ومن عمل هذه النزعة ان تجمع بين البشر في صفات عقلية كتشابه العقول جميعاً في قواعد منطقية مشتركة : كالكل اكبر من الجزء وكتشابه العواطف جميعاً في الميل الى من يحسن الينا والنفور ممن يسيء وكتشابه الارادات جميعاً في التحفز لدفع الاذى ورفع المكروه

اما النزعة الثانية فتغري الفرد بالاحتفاظ بصفات . فمن عملها تمييز الفروق بين مختلف الناس وتوكيد مشخصاتهم . واهم العوامل في نشأة هذه النزعة عامل الميول التي تفقد من تأثيرات متشعبة اهمها تأثيرات المحيط والوراثة بخلاف النزعة الاولى فانها تنشأ في الانسان لانسانيته فحسب

من شأن النزعة التي تمزى الى المفارقة وتعمل على تعزيزها ان تعطل عمل النزعة الاولى التي تؤيد مظاهر المشاركة بين الناس وتمزى الى مواضع المشاكلة فهي بذلك تحد مدى المحاكاة

وقد يحمد او يذم ما ينفرد به شخص من الاشخاص وفقاً لنزعة المفارقة والتفرد . فيحمد حين تقتضيه الحاجة والظروف ويصدر عن المنطق وترضاه النفس ، مثال ذلك : ان ينفرد شخص عن افراد الجماعة التي هو منها بطعام او نظام او لباس تقضي عليه به احكام الصحة او العمل او الذوق . او كان ينفرد شخص بالدعوة الى رأي انتهى اليه بمقدمات معقولة لم تمكن معرفتها من نصيب غيره كما انتهى «غاليليو» الى الجهر بدورة الارض مثلاً

وفي هذه الامثلة يظهر ان وجه الجهر في التفرد انما يرجع لانسجام ما انفرد به الشخص مع مقتضيات الحال والعقل

اما ما يذم منه فيرجع الى كل امر ينفرد به الشخص ويباين به غيره دون ان تكون هذه المباينة منسجمة مع مقتضيات العقل والاحوال مثال ذلك : ان ينفرد احد الناس بمخالفته لكل رأي من غير ما يدعو الى ذلك الا نزق المخالفة او ينفرد شخص بتغذية نزعات وميول ليست مألوفة ولا مستوية

ويظهر مما تقدم ان نزعة التفرد طبيعة في الانسان ، مقبولة ما دامت تبلغ الى ما ينسجم مع حاجات النفوس ومقتضيات الاحوال وهي انها كما تحول بطبيعتها بين الاشخاص وبين ان يشاكل بعضهم البعض من كل امر فهي كذلك تحول بين الجماعات والشعوب ان يشاكل بعضها البعض من كل امر كذلك

ايها السادة : ما دامت نزعة التفرد طبيعة لتعين على تهيئة الانسجام والملاءمة مع الظروف الخاصة فمن الطبيعي ان يكون للشعوب المختلفة في محيطها وظروفها وتاريخها

مشخصات . وفائدة المحافظة على المشخصات ان يظل الشخص او الهيأة في اتصال وانسجام مع الماضي والظروف ومن الانسجام كل معاني الخير والبركة

ولو كان لشخص ان يعمل على تبديل مميزاته من غير انقطاع ولا يحفظ لنفسه شيئاً مما به يكون هو هو ، اقول لو كان لشخص ان يفعل ذلك ويستخف بمميزاته لوجد من نفسه عدة اشخاص متباينة قد يعمل احدها ما لم يكن ليتفق مع عمل السابق وبذلك تضطرب حياة الشخص وتتناقض وقد يهدم في الغد ما قد يكون بني بالامس اذ لا ترتكز الحياة على ماض ولا ترتبط بأمل . وكذلك الشعوب التي لا تعتز بمميزاتها ولا تحتفظ بما تنفرد به فانها تضطرب في سيرها لانها لا تتكيء على ما يصلها بتاريخها ويلائم بينها وبين ظروفها

واذا كانت المشاكل فطرية للانسان في كثير من الامور فانها تحترم وتستحب بمقدار عدم تعارضها مع نزعة الفرد التي هي فطرية كذلك

اذن فليحاك كل منا الآخر فيما عنده من حسن، وتحاك الشعوب بعضها بعضاً ولكن على ان تكون تلك المحاكاة متفقة مع حاجات النفوس الى مشخصاتها المميزة ملتئمة مع مقتضيات الاحوال . ان محاكاة الطفل الصغير للرجل الكبير في المشي ليست مستمدة من حركات الكبير فحسب لكنها تصدر عن حاجة اعضاء الطفل واستعداد عضلاته لهذا النوع من الحركة. ولم تكن حركات الكبير الا معيناً لنضوج هذا الاستعداد عند الصغير ومرشداً له الى طريق اتت به سنه وحاله اليها . ومهما يقال في امر مميزات الشرق والغرب وموقف الشرق من الغرب فان للشرق مميزات بحكم اقاليمه وتواريخه وللغرب كذلك مميزات وان مواجهة كل منهما للآخر تدعو لان يقول كل منهما كلمته فيما يكون بينهما من التبادل

فما الذي يؤخذ عن الغرب وما الذي لا يؤخذ ؟

وما الذي يؤخذ عن الشرق وما الذي لا يؤخذ ؟

ايها السادة : يلوح لي ان القاعدة التي قررناها من ان المحاكاة تحمد من كل ما تشعر النفس البشرية بصلاحه للمحاكي دون ان تتعارض هذه المحاكاة مع المميزات الفردية الصالحة هي نفس القاعدة التي تطبق في الحالات التفصيلية عند تقليد الشرق لمدنية الغرب

فما لا شك في صلاحيته للشرق تلك الحضارة الصناعية التي تبدو في الآلات العديدة التي اخترعها العلم وحقق اهل الغرب وجودها وفوائدها وأصبحت الانسانية لا تستغني عنها لتسهيل شؤون الحياة : فمنها آلات البخار وآلات الكهرباء وادوات الوقاية والطب وكثير من نظم الحكم الثابتة وكثير من النظم الاقتصادية التي لا تتنافر مع حاجات الشرقيين وغير ذلك مما لا يتردد الانسان السليم الفطرة في الاقرار بآثاره الصالحة والعمل على الاخذ به

لكن رغم اقرارنا محاكاة هذا الجانب المادي من الحضارة الغربية فان كثيراً من الامور التي اتصلت بحضارة الغربيين دون ان تكون نتيجة لازمة للعلم او مخترعاته يستطيع الشرقي ان يصد عنها دون ان تعطله عن ثمرات التقدم الصحيح

طالما لصقت بحضارة الغربيين اخلاق المطامع ، ونزعات التنازع والتناكر ، وحالات الاثرة ، والاندفاع في سبل الشهوات ، وارهاق النفس ، واستنفاد مادة الاعصاب لاقتناص الثروة وغير ذلك مما يلازم او يتفرع عن هذه الصفات

وطالما بالغت الحضارة الصناعية في توزيع الاعمال الذي تمدى الصناعة الى امور العلم والسياسة والادارة والفن وأدت تلك المبالغة من غير حيطة لمساوئها الى حصر الكثيرين من الناس في حالات الضيق الفكري والضعف الروحي

***

على اننا نرى ان جميع هذه الاحوال والصفات ليست نتيجة مباشرة لحضارة العلم الصناعية او لتوزيع الاعمال لكنها على ما ارجح نتيجة لخلو الصدور من الجو الروحي ، ونفر النفوس الى مدد من المبادىء الخلقية السامية والحاسة الاصلاحية والايمان . وذلك لان الحضارة اليونانية التي يمتد فيها اكبر اصول الحضارة الغربية لم تقم بنصيبها الكافي في تجهيز الغرب بالعدة الصالحة لاتقاء كثير من الشرور . وذلك لان الفلسفة عند اليونانيين قد اعتمدت على العلم وحده واعتمدت الاخلاق عندهم كذلك على التحليل العقلي لمعرفة شؤون النفس ولم يظهر لهم من الانسان الا جانبا العقل والارادة فهما في نظرهم الانسان كل الانسان

اما من جهة الدين فلم تكن في الاصل آلهة اليونانيين الا قوات للطبيعة ثم تصوروها مع مرور الزمن في صور البشر وكان يحفظ لها في صدور الناس ما يحفظهُ الانسان للناس من اعجاب وخوف واجلال وحسد وانفة وارتفاع كانفة وغير ذلك من العواطف

والخلاصة ان جهة الخلق كانت تعتمد على العقل والعقل كثيراً ما يشك ويرتاب وعلى الارادة والارادة كثيراً ما تضعف . وكان الدين كذلك عندهم يقوم على ارباب لا تؤكد اذعان الناس واستسلامهم وبالجملة لقد كانت الجوانب التي اعتمدت عليها النفسية اليونانية والمدنية الغربية من اشد اصولها ضعفة الوجدان

ومن ثم لم تؤت الديانات الروحية التي تستمد قوتها من اعماق الوجدان كل ثمارها لوقاية نفوس اهل الغرب من الانحرافات التي تظهر الى جانب الحضارة الصناعية العلمية وذلك لضعف الجانب الوجداني وقوة الجانب العقلي عندهم كما اسلفنا

اما الشرق فاننا اذا نظرنا نظرة اجمالية في تاريخ نفسية اهله وجدنا ان ثمة صفات تباين تلك التي ذكرنا مما يتصل بحضارة الغربيين

فلو نظرنا مثلاً الى العقائد القديمة لاهل الشرق الاوسط لوجدنا ان ارباب كانت قهارة تخضع لقوتها وسلطانها الخلائق ، ثم تحولت هذه العقائد واصبح اخضاع الخلائق وقهرها بالحب والرحمة ثم كان بالايمان والاستسلام . وان فهم العقائد على هذا النحو يغذي روح التقديس والاذعان والنظام والتواصل في شؤون الحياة بخلاف ما كان عليه الامر في العقائد الاغريقية التي كانت تدري على رفع الكلفة بين الناس وبين آلهتهم ومن ثم تحض على كثير من مظاهر التمرد

ثم لو نظرنا الى اخلاق الشرق المتوسط منذ القديم لوجدنا ان بين اسلوبها وبين اسلوب الاخلاق اليونانية فرقاً مذكوراً . ذلك انهُ بينما يعتمد الحكيم الاغريقي على العقل فيرى في ضوئه الانسجام الملازم لنواميس الطبيعة المحيطة والعالم الخارجي ، والانسجام الملازم لقواعد العقل واحكامه المنطقية نرى ان الحكيم الشرقي يتخذ سبيلاً آخر فيعود الى نفسه ، ويلتوي عليها ، ويستبطن ، ويتعمق ، فيجد وراء عالم الانسجام الكوني والمنطقي عالماً بعيد المرامي من الحب ، ومن التوكل ، ومن التسليم ، ومن القناعة والغيرية

ولو نظرنا الى الذوق والفن عند الفاريين من شرقيين وغربيين لوجدنا ان ذوق اليوناني وفنهم يتصلان في كثير بعالم الشهادة وبالحياة الواعية بخلاف الذوق والفن عند غيرهم من قدماء الشرقيين فيتصلان بعالم الغيب والوجود الاخروي والحياة الروحية

ايها السادة : يبدو لنا مما تقدم من هذه المقارنة الاجمالية الجلي ان الاختلاف موجود بين نفسية جماعتين من البشر : الغربيين والشرقيين

ويحمل هذا الاختلاف فيما يغلب ان نطلق عليه مواضعة : روحانية الشرق ومادية الغرب

ويخيل اليَّ ان روحانية الشرق متأصلة من نفوس اهله لان الشرق اقدم اتصالاً بالمعاني الدينية والوجدانية من الغرب وهو بذلك مهيأ لكثير من المناعة ضد الرذائل التي تساعد مدنية العلم والصناعة على نشرها وتموها . وانهُ ليكفي من المجهودات اقلها لصيانة البلاد الشرقية من خطر الحالات الاجتماعية والصفات النفسية التي هي موضع شكوى مفكري الغربيين وحكامهم

فلا خوف اذن على الشرق اذا هو حاكى الغرب في ما هو نتيجة للعلم من اتخاذ ثمراته وادواته لكن الخوف كل الخوف يوم تسير المحاكاة في جو من نسيان النفس والماضي ، وفي ضرب من الخفة والرعونة فيلتقط الزبد ويترك في الارض ما ينفع الناس

ومن احتكاك اهل الشرق بحضارة الغربيين ومحاكاتهم لها ستنشأ حضارة المستقبل

ولن تكون حضارة المستقبل على ما نرجو مستغرقة لنفس الانسان ، مستخدمة لكل قواه على نحو ما تستخدم الآلة كما هو حاصل الآن

ولن تكون حضارة المستقبل حضارة تنازع وتناحر تقوم على فكرة «ان الانسان ذئب للانسان» ، او حضارة كفاح ومغالبة يقال فيها «الحق للقوي» ، او حضارة لذات ونعومة يقال فيها «احبُّ اكبر اللذات» ، «ولك الساعة التي انت فيها»

لن تكون كذلك حضارة المستقبل . ونرجو ان تكون حضارة رضا واطمئنان لما تمكن اليه نفوسنا فيقول كل انسان رضيت بنصيبي من الدنيا ونعمة الله علي ، وحضارة اخاء يقال فيها سلام ، وحضارة تضامن وتراحم يقال فيها كن في عون اخيك والله سند الجميع وحضارة مراس وخشونة فيهون ما يعرض من الم . وذلك لان حضارة المستقبل ستكون مظهراً للهضم والتمثيل فيما يتبادل من خير صفات أهل الشرق ومن خير صفات اهل الغرب

فما قد نراه من شدة الحرص على الزمن والثمن مما قد يعرف منهُ في غير الانتاج المادي قد تخفُّ حدته عند توالي الاتصال والاحتكاك بما قد يوجد عند اكثر أهل الشرق من النزوع الى التواني والاستخفاف بالايام وقد تتقلب المبالغة في الحالين الى حال وسط معتدل يجمع بين حاجات الانسان الى الانتاج المادي وحاجاته النفسية الداخلية الى الراحة والتأمل

وما قد نراهُ من شدة المطامع من جهة قد يلطفهُ ما يشاهد من مظاهر القناعة من الجهة الاخرى

وما قد يرى في ناحية من مظاهر الانانية والاثرة قد يتبعهُ ما يشاهد في ناحية اخرى من مظاهر التواد والمجاملة

وما قد يشاهد عند البعض من تراخي الروابط العائلية القائمة على المصالح الاقتصادية قد يقاومهُ ما يشاهد عند البعض الآخر من تقديس عواطف الابوة والبنوة والتراحم بين الزوجين

وما قد يشاهد احياناً من شهوة التجديد المستمر المتوالي في منتوجات الذوق قد تتلطف حدتهُ عند الاتصال بروح المحافظة والاستقرار

وما قد يشاهد احياناً من خضوع الانسان للشؤون الاقتصادية في اخلاقه ومن ضعف الشرف وامتهان الكرامة قد يصلح بما يكون لدى الانسان من قوى المبادىء والاقتناعات التي تصبهُ بالمبادىء السامية والمثل العليا

وبالاجمال لن تكون حضارة الغد شرقية من نواحي مدنية الغرب الضعيفة ولن تكون شرقية من نواحي صفات الشرق الضعيفة ، ولكنها تكون مدنية العقل والوجدان في اصفى مظاهرهما . مدنية الانسانية الرفيعة . مدنية الله الذي يحفظ للبشر خير ما اودع في الشرق وخير ما اودع في الغرب